كتاب الشباب

الكَنْزُ الضَّائِع



أحمد عبدالسلام البقالي

مكتبة العبيكان



الكَنْزُ الضَّائِع

بقلـم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي ، أحمد عبد السلام

الكنز الضائع . ـ الرياض .

. . . ص؛ . . . سم . ـ (سلسلة كتاب الشباب)

ردمك ١ ـ ٢٣٢ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠

١ ـ القصص البوليسية العربية أ ـ العنوان ب ـ السلسلة

ديوي ٠٨٧٢ ، ٨١٣ ١٧/٠١٣٨

ردمك ١ ـ ٢٣٢ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع : ١٧/٠١٣٨

الطبعة الأولى ١٤١٧هـ
الطبعة الثانية – مكررة
١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة
ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥
هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

عـادَ الفتَى المختـارُ أغلــولُ إلَى بيتِـهِ يجرِي ويكـادُ يطيرُ منَ الفرحِ ! دفعَ البابَ ودخلَ علَى أمِّهِ الحاجة زهرة لاهثًا وصاحَ :

- أمِّي ، لقدْ ختمتُ القرآنَ !

فانفتَح فَمُهَا ، ونظرتْ إليْهِ مندهشَةً ، وسألتْهُ غيرَ مصدقةٍ :

- أحقًّا ، يا ولدِي ؟!

- واللّـهِ العظيمِ ، يا أمِّي ! ختمتُـه كتـابةً وحفظًـا . أخبرنِي بـذلكَ فقيهُنَـا السيـدُ الطـاهـرُ اليـومَ بعـدَ أنْ ختمتُ قـراءةَ السلكةِ[1] أمـامـه ، دونَ تـوقفٍ أو خطإٍ ! وقـدْ طلبَ منِّي أنْ أقـولَ لكِ أن تُقيمِي لنَا حفلَ الختمـةِ[2] ، بعـدَ صلاةِ الجمعـةِ القـادمـةِ . وسيحضرُ الفقيــهُ وجميعُ الطلبـةِ[3] إلى بيتِنَـا لأكلِ الكسكسِ !

---

(١) السُّلْكَةُ : قراءة كاملة للقرآن .
(٢) الختِمة : ختم حفظ القرآن الكريم .
(٣) الطُّلْبة : تلاميذ الكُتَّاب القرآني .

ففتحتْ الأمُّ ذراعيْهَا، وضمَّتْهُ إلى صدرِهَا، وانهمرَتْ دموع السعادةِ غزيرةً منْ عينيْهَا. كانَ ذلكَ اليومُ منْ أسعدِ أيامِ حياتِها، لا يعادلُه إلا يومَ ولَدَتْهُ!

كانتِ الحاجةُ زهرةُ منْ بيتِ علمٍ ودينٍ. تُوُفِّيَ أبوهَا الفقيهُ سيدِي المختارُ الراضِي، فاضطُرَّتْ إلى الزواجِ من تاجرٍ كبيرِ السنِّ، ماتتْ عنهُ زوجتُه، وتركتْ لهُ ولدينِ بالغينِ.

وبعدَ صلاةِ الجمعةِ حضرَ طلبةُ الكُتَّابِ، يتقدمُهُم الفقيهُ الطاهِرُ، وهمْ ينشدونَ نشيدَ الختمةِ بأصواتٍ عاليةٍ... وقدَّمتْ لهمْ والدةُ المختارِ قصاعَ الكسكسِ باللَّحمِ والخضرِ، وأتبعتْهُ بكؤوسِ الشاي الحُلوِ المنعنع(١). وبعدَ الشاي فتحَ الفقيهُ سورةَ ﴿**إنَّا فتحنا لكَ فتحًا مبينًا * ليغفرَ لكَ الله ما تقدَّمَ من ذنبِكَ وما تأخَّرَ...**﴾ وبعدَهَا رفعَ الجميعُ أكفَّهُمْ بالدعاءِ للمختارِ الراضِي بالفتحِ والنجاحِ... وأرسلتْ السيدة زهرةُ إلى دارِ الفقيهِ قصعةَ كسكسٍ وقالبَ(٢) سكرٍ، وطلبتْ منهُ نُصحَ ابنِها المختارِ بما ينبغي أنْ يفعلَهُ بعدَ أن ختمَ القرآنَ الكريمَ.

---

(١) المنعنع: الذي أضيف اليه النعنع.
(٢) قالب السكر: قطعة أسطوانية من السكر الصلب.

كانـتْ حريصـةً علَى أنْ يكونَ ابنُها عـالمًا جليلاً، مثـلَ جدِّهِ الذي علَّمَهَـا القرآنَ وبعضَ الحديثِ النبـويِّ. لمْ تكنْ ترغبُ في أنْ يصبَح تـاجرًا بسيطًـا بلا طمـوحٍ، مثلَ أبيهِ الأمِّي المشغـولِ بجمعِ المالِ، ولا مثلَ أخـويـهِ من أبيهِ مـرزوقٍ ومسعـودٍ. . . فنصحَهُ الفقيهُ بحفظِ متونِ الديـنِ والنحوِ واللغةِ، قبلَ التوجُّهِ إلى جامعة القرويينَ بفاسٍ.

كـانَ أخَوَاهُ وريثين حقيقيينِ لأبيهِمَا في الشَّراهـةِ وحب المالِ! وكانَـا يكرهـانِ زوجةَ أبيهِمَا زهـرةَ؛ لأنَّها خلَفَتْ والـدتَهُما الميتَةَ، وضـايقتْهُمَا في ثـروةِ والـدِهِمَا، بـوجـودِهَـا وبـالطفلِ الجديـدِ المختارِ. وحينَ ماتَ والدُهُما استوليَا علَى كلِّ شيءٍ واختفيَا. . . وعادتْ زهـرةُ إلى بيتِ أبيهَا، وكرَّستْ بقيَّةَ حيـاتِها لتربيةِ الطفلِ النبيهِ الوسيمِ.

وبعدَ حفظِهِ المتونَ، نصحهُ معلمُـهُ بالذهابِ إلى تارودانت، عاصمـةِ المنطقةِ العلميـةِ، لدراسـةِ العلومِ الـدينيةِ والعـربيةِ. وهناكَ كـانتْ أمُّهُ ترسلُ إليـهِ كلَّ مَا كـانَ يحتاجُ إليه من مـؤونةٍ ونقودٍ. وكانَ هوَ يعودُ مشتاقًا إليهَا وإلَى قريتِهِ وأصدقائِهِ في كلِّ عطلةٍ مدرسيةٍ.



وفي أحدِ الأيامِ جـاءَ منْ أخبرَه بوفاةِ والدتِه الحبيبـةِ العزيزةِ، فـانهارَ عالَمُه . . . ووقفَ علَى قبرِهَـا يبكِي وحيـدًا، وقلبُه يكـادُ يتفطَّـرُ حزنًـا وضياعًـا . . . وجاءَ معلمُـه، فأحاطَـهُ بذراعِـه، وأخبرَهُ أنَّ أخويْـهِ مرزوقًا ومسعودًا مـوجودانِ في مدينـةِ العرائشِ بالمنطقةِ الشماليةِ، ونصَحَـهُ بأنْ يذهبَ إليهِما ، ويطالبَهُما بحقِّهِ في تركـةِ والدِهِ. وكتبَ لـهُ رسالةً إليهِما، يـذكرُهُمَا فيهَـا بأحكامِ الشريعـةِ، ويهدِّدُهُما تهديدًا ضمنيًّـا بـالمتـابعةِ أمـامَ القضـاءِ. وسـاعـدَهُ علَى الحصـولِ على جوازِ سفـرٍ يجتـازُ بـهِ الحدودَ بينَ منطقتَيِ الحمايتينِ الفرنسيةِ والأسبانيةِ.

* * *

كانَ الأخَوانِ مـرزوقٌ ومسعودٌ قدْ هربَـا ليلاً بأموالِ أبيهِما في نهايـةِ عـامِ ١٩٣٩م، دونَ أن يخبرَا أحــدًا بـوجهتِهِما. وقـامتْ الحربُ العـالميَّـةُ الثـانيــة فـانقطعتْ الصـلاتُ بينَ المنطقتينِ، وسـاعدتْ على إخفـاءِ وطمسِ أثـرِهِمَا. فقـدْ أخـذتْ أسبانيَـا جــانبَ ألمانيَـا في الحربِ ضــدَّ فـرنسَــا، وأغلقتِ الحدودُ بينَ المنطقتينِ المغربيّتينِ . . .

وفي مدينـةِ العرائشِ استطاعَـا أن يؤسِّسَا شركـةَ نقلٍ مهمةً، واقتنيَـا عـددًا مـنَ النـاقـلاتِ الكبيرةِ التي كـانـتْ تـربطُ بين العرائشِ والمدنِ والأسواقِ المجاورةِ لهَا.

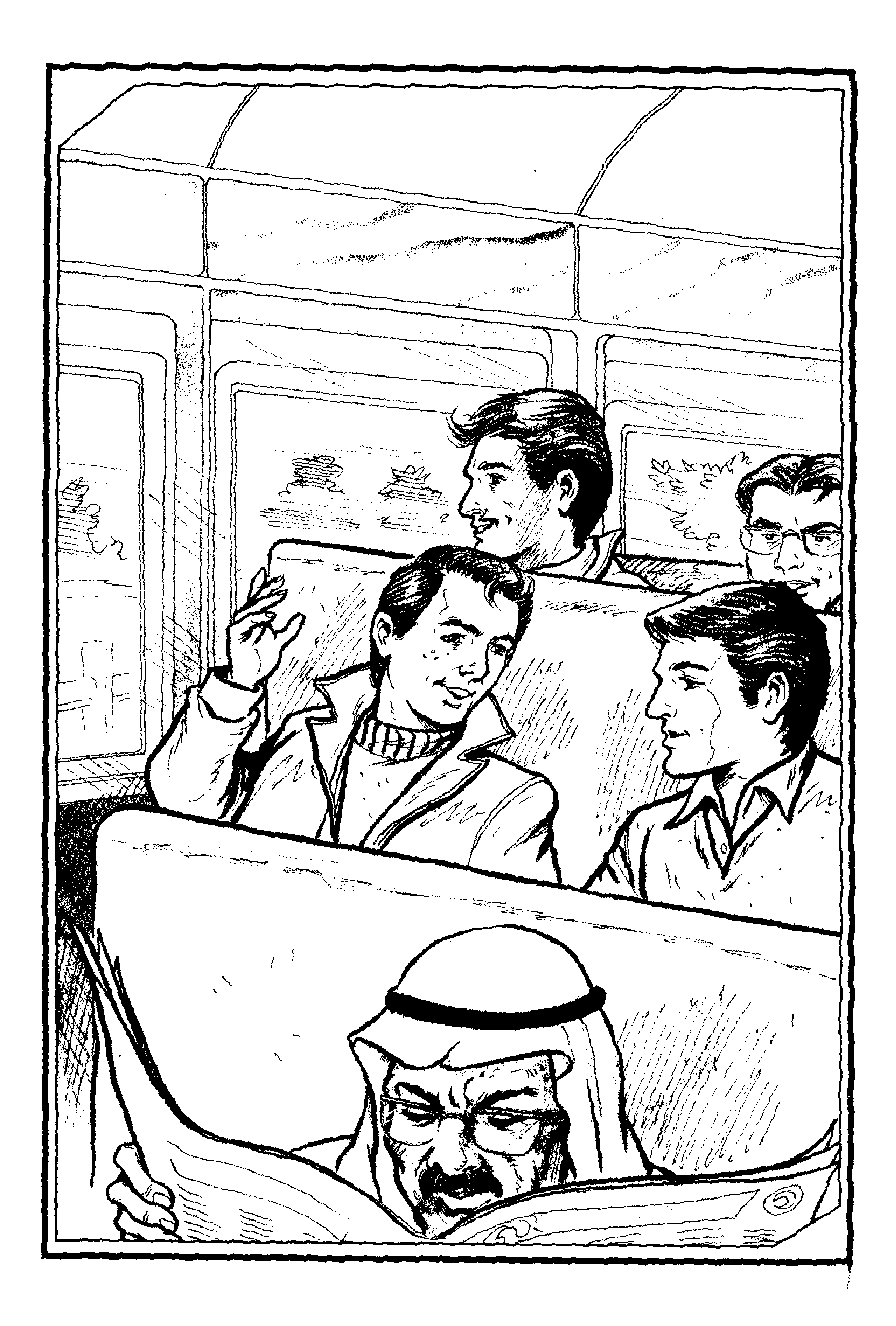
وكـانَـا شـديـدَي البخلِ، يعيشـانِ على الشـاي والخبـزِ والـزيتـونِ، ولا يملكـانِ إلا بُلغـةً[1] واحـدةً، يستعملُهـا من يغادِرُ الدكانَ، لقضَاءِ حاجـةٍ مَا، ويبقَى أخُوه حافيَ القدمينِ، حتَّى لا يقفلَ الـدكانُ. . . وبـذلكَ استطـاعَـا تكديسَ ثـروةٍ طائلةٍ لا يعرفانِ مدَاها. . !

ولما كـانَـا لا يثقـانِ في البنـوكِ، ويخافـانِ من دفعِ الـزكـاة والضرائب فقد كانَا يحتفظانِ بأموالهِما في شكلِ أوراقٍ نقديةٍ من فئةِ ألفِ بسيطـةٍ، في خزانةٍ حـديديةٍ داخلَ حـائطٍ، وراءَ قطعةِ أثاثٍ كبيرةٍ. . !

وكـانَ شُحُّهُمَا مضرِبَ الأمثَـالِ، وهـدفًـا لكثيرٍ من التشنيعِ والتنكيتِ! ولمْ يتـزوجَا خشيـةَ الإنفـاقِ علَى الزوجـةِ والأولادِ. ولكنَّهمَا اضطُرَّا إلى الزواجِ بعـدَ أنْ أصبحـتِ الـمدينـةُ تعدُّهُمَا

---

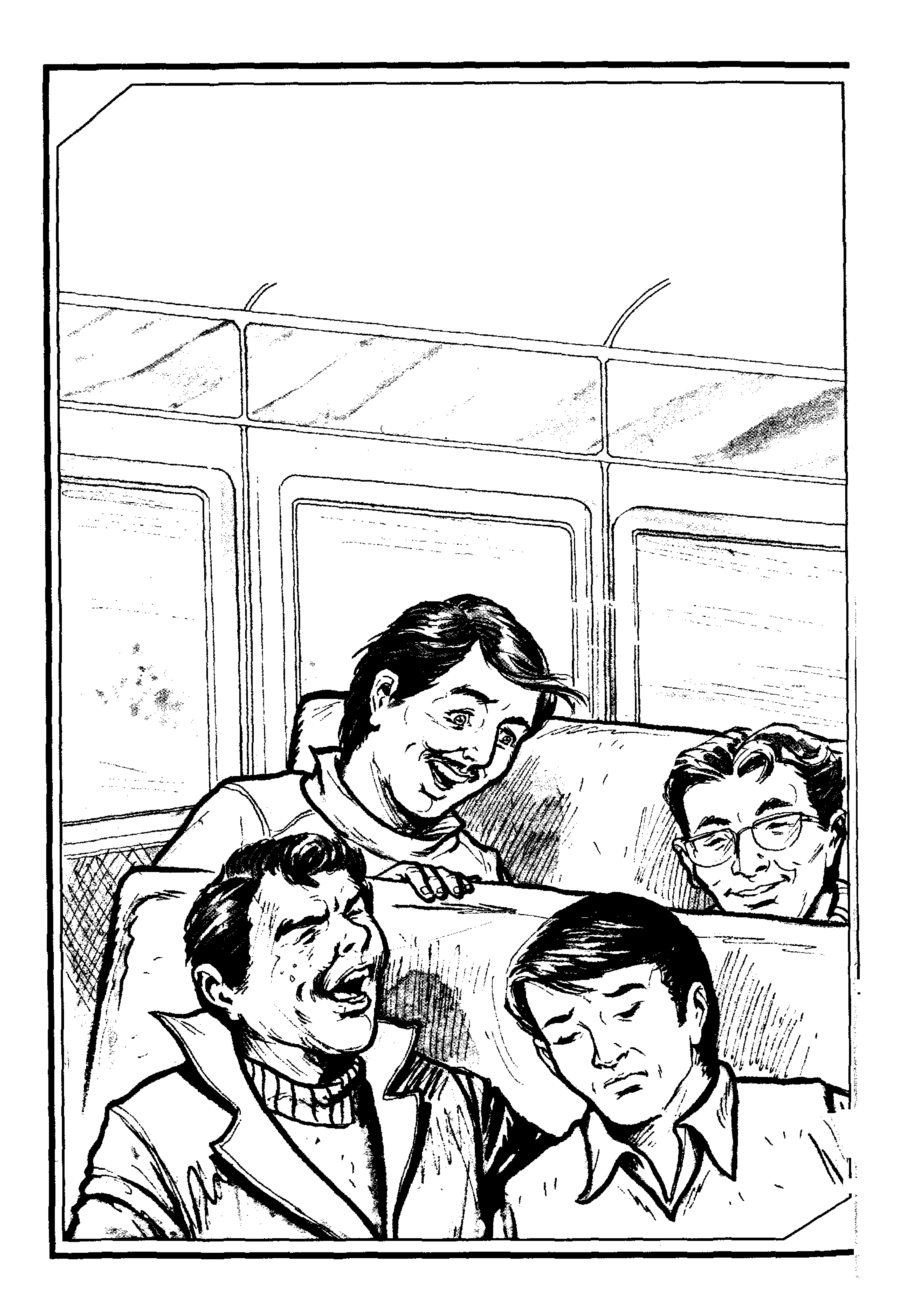
(١) البلغة: الحذاء المغربي الأصفر المفتوح من الخلف.



- بـالـرغم مِنْهُمَا - من أعيــانِهَا ! وبنيَـا فـوقَ الـدكـانِ شقتينِ صغيرتينِ، واشتريَا بُلغتينِ.

كـانَ الفتَى المختـارُ أغلـولُ في الثامنـةَ عشرةَ حينَ سـافـرَ المسافـةَ الطويلـةَ بينَ تارودَانت والعـرائشِ بالقِطَـارِ. وكانتِ الحربُ قـدْ وضعتْ أوزارَهَـا، فـاستطـاعَ اجتيـازَ الحدودِ بينَ عــربــاوةَ والقصرِ الكبيرِ. ونـزلَ بـالقصرِ الكبيرِ بحقيبتِـهِ الخشبيةِ، وركبَ حـافلةَ أغلـول إلى مدينـةِ العرائشِ. وخَفَقَ قلبُهُ حينَ قـرأَ اسمَهُ العـائليَّ أغلول بـالعربيـةِ والأسبانيـةِ على حافلةِ أخويهِ.

وفي الحافلةِ جلسَ بجانبهِ فتًى في سنِّـه تقريبًا، فسألَهُ المختارُ هلْ يعرِفُ صاحبَيِ الحافلـةِ؟ فضحكَ الشابُّ، وقالَ: «الناسُ يسمـونَهمَا هنَـا بالجلـدتينِ، لشـدةِ بخلهما... ويحكـونَ عنهُمَا الحكـايـاتِ والنـوادرَ المضحكةَ، فيحكـون عن مـرزوقٍ الـذي سقطَ منـهُ قِرشٌ من نـافذةِ منـزلِه بالـدورِ الثالـثِ، فنزلَ يجرِي حتى لا يسبقَهُ إليـهِ أحدٌ، وانحنَى يبحثُ عَنْـهُ، فسقطَ القرشُ علَى قفاهُ!».



وضَحِكَ المختارُ ضحكةَ مجاملـةٍ صفراءَ، فعادَ الفتى يحكِي نكتةً أخرَى، ظنًّا منهُ أنَّ المختارَ لم يفهمِ الأولَى، قال: «مسعودٌ ومـرزوقٌ يضعـانِ مـرآةً في درجِ الفلـوسِ. أتعـرفُ لماذا؟ حتّى يتأكدَا منْ أنهُمَا اللذانِ يفتحانِهِ!».

وكـانَ بجـانبِهما فتًى ينصِتُ ويضحكُ، فقـالَ: «ويحكَى أنَّ أمَّهُمَا جـاءتْ لـزيارتِهما، ففـرحَـا بهَا، وسألاهَـا ماذَا تـريـدُ أنْ تشربَ؟ وحينَ طلبتْ كُوكا كولا، سألاها: هـلْ جئتِ بالزجاجة الفارغةِ؟!».

ولمْ يـلاحظِ الفتَيانِ انقبـاضَ المختـارِ وعـدمَ تجاوبِهِ، فظـلاَّ يحكيـانِ بصـوتٍ مرتفعٍ، خصـوصًـا حينَ أخـذَ بقيةُ الـركـابِ يضحكـونَ من النكـاتِ ويستـزيـدونَ... وتكلَّمَ شـابٌّ من خلفِهما قائلاً: «أنـا سمعتُ أنَّ الأخوينِ ورثَـا الشُحَّ عن أبيهِمَا؛ فقـدْ قيلَ عنهُ إنَّـه لمَّا حضرَهُ الموتُ، جمعَ أولادَهُ السبعـةَ حولَـه، وأخذَ يسألُ عنْ كلِّ واحـدٍ باسمِهِ، وحينَ أجابُـوا جميعًا، صاحَ فيهم: ومنْ تركتُم في الدكانِ، يا أولادَ السوْقِ؟!».

وأضافَ الفتَى الأولُ: «فعـلاً! فقدْ سألَهُما، مرةً، كمْ سـاعةً يفتحـانِ الدكـانَ؟ وحينَ أجابَـا بأنَّهُمَا يفتحـانِه أرْبعًـا وعشرينَ ساعةً في اليومِ قالَ لهُمَا: بيعَا البابَ!».

وقالَ الفتَى الأولُ: «أتعرفونَ كيـفَ ماتَ الأبُ؟ ماتَ ويدَاهُ مرفوعتَانِ إلَى أعلَى! لأنَّهُ كـانَ يرفعُ بابَ الدكانِ، حينَ اكتشفَ أنَّهُ تعرَّضَ للسرقةِ!».

وأضافَ الفتَى الثـانِي: «أتعرفـونَ ماذَا كانَ أبـوهُما يرَى حينَ كـانَ يفتحُ بـابَ الـدكـانِ؟ يرَى الشـارعَ! فقـدْ كـانَ ينـامُ فِي الدكانِ!».

وانطفأت شعلـةُ الشوقِ والفخـرِ في صدرِ المختـارِ بأخويْـهِ النـاجحينِ، وعـزَّ عليـهِ أن يصبحَا مسخـرةً لأهلِ هـذَا البلـدِ البعيدِ الغريبِ، ويمرِّغَا اسمَ العائلةِ في الأوحالِ...

ومعَ ذلكَ مسحَ دموعَـه، وكبَتَ الرغبـةَ في العودة من حيثُ أتَى، وذهبَ إليهِمَا في دكـانِهما. ووقفَ علَى بابِ الـدكانِ ينظـرُ إليهِمَا لعلَّهُ يتـذكرُهُما. وكـانَا قـدْ تركَـا لحيتيْهِما تطولانِ، تـوفيرًا لشفراتِ الحلاقـةِ وادعاءً للـورعِ والتديُّنِ! فتعـرَّفَهما رغمَ طولِ العهـدِ بهمَا. ووقفَ ينتظـرُ حتّى انتهيَـا من بيعِ أوراقِ الحافلـةِ الخارجة، ونظـرَ إليه أخُوه مـرزوقٌ وسألَه دونَ أن يبدُو عليـهِ أنَّه تعرَّفهُ:

- ماذَا تريدُ؟

فابتسمَ المختارُ، وقالَ :

- ألمْ تعرِفْنِي؟! أنَا المختارُ، أنا أخوكُمَا الصغيرُ. . .

وانضمَّ مسعودٌ إلى مرزوقٍ، لينظرَ إلى هـذَا المخلوقِ الغريبِ الذي يَدَّعِي أنَّهُ أخوهُمَا، فقالَ مرزوقٌ :

- يفتحُ الله ! نحنُ ليسَ لَنا إخوةٌ !

- فكبَتَ المختارُ الطعنةَ، وأعاد الكَرَّةَ:

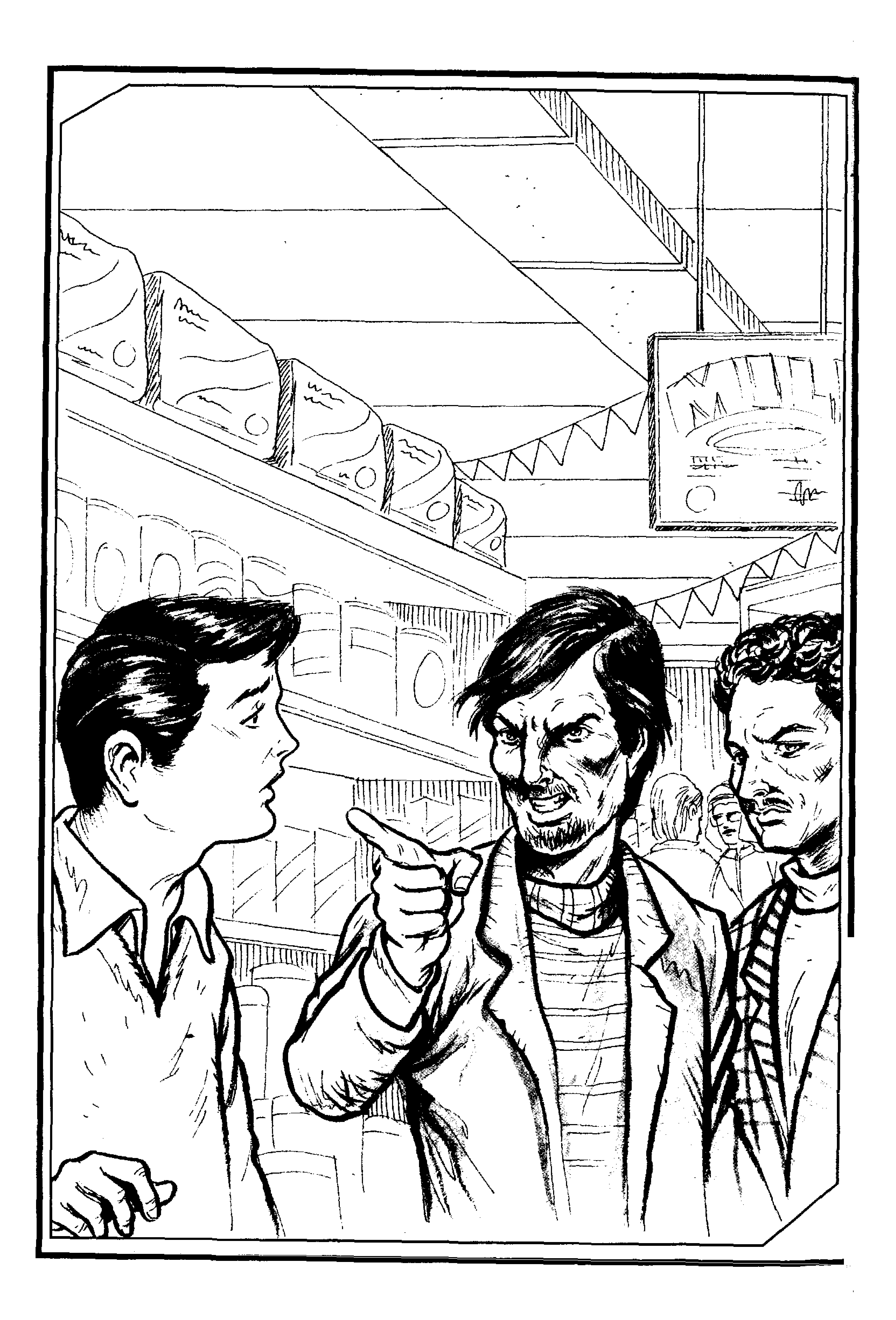
- طبعًـا أنتُمَا لا تـذكـرانِنِي، فقـدْ تـركتُمَا البلَـد وأنَـا طفلٌ صغيرٌ. . .

فقالَ مسعودٌ:

- اذهبْ، يا ولدِي، اذهبْ. الله يُسَهِّل . . .

فأخرجَ المختارُ جوازَ سفرِهِ، ووجَّهَهُ إليهِمَا قائلاً :

- انظـرَا، هذِهِ صـورتِي، وإلى جـانبِها اسمِي، المختـارُ بنُ إبراهيمَ أغلول .



وقرَّبَ الجوازَ منهُما، فلمْ ينظُرَا إليهِ . . . وتذكَّرَ المختارُ رسالةَ الفقيـهِ السيدِ الطـاهـرِ، فأخرجَهَـا من جيبـهِ، ومدَّهـا إليهِما، فامتنَعَا عن أخذِهَا، وكأنَّهَا عقربٌ ! قالَ المختارُ:

- إنَّها رسالةٌ من فقيهِكُما، السيد الطاهرِ!

ولمْ يظهرْ على وجهيهما أثـرٌ لمعرفةِ الـرجلِ. ففتحَ الرسـالةَ، وقرأَهَا عليهِمْ، حتّى وصلَ إلى خاتمةِ الـرسالةِ التي أنهاهَا الفقيهُ بالآيةِ الكريمةِ ﴿**فأمّا اليتيمَ فلا تقهرْ * وأمَّا السائلَ فلا تنهرْ * وأمّـا بنعمةِ ربِّكَ فحـدِّثْ**﴾ صدق الله العظيـم. ورأى مرزوقٌ زبونًا قـادمًا - وكانَ أشرسَ الأخوينِ - فخطَفَ الرسـالةَ من يدِ المختارِ ومزَّقَها، وألقَى بها وراءَه، وصاحَ فيهِ:

- اذهبْ، أوْ أدعُو لكَ الشرطةَ !

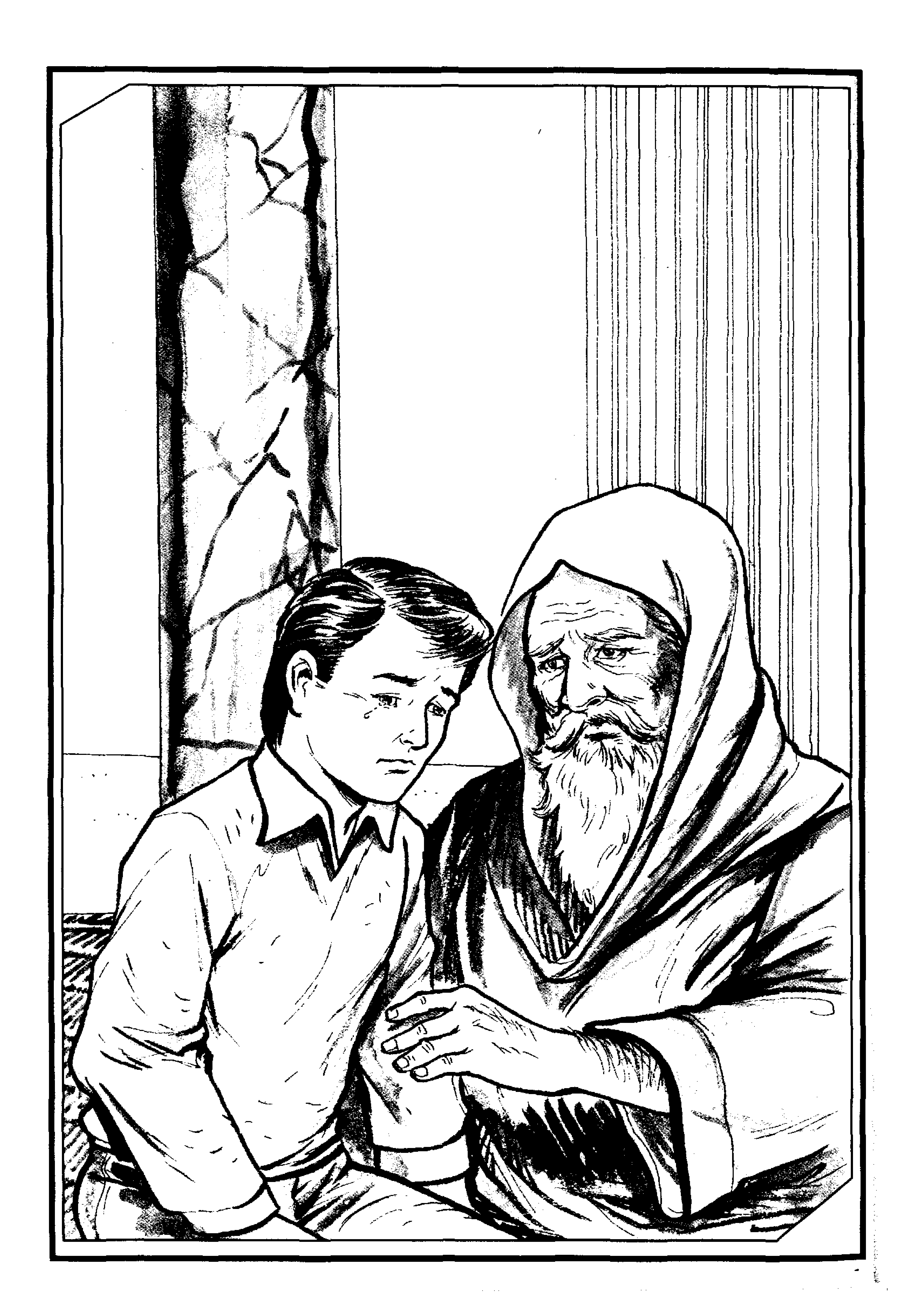
وأحسَّ المختارُ بالقهـرِ الشديدِ وبالدمـوعِ تطفرُ من عينيْهِ، رغمَ إرادتِـهِ ! كانَ مـوقفُهُمَا القاسِي لا يعنِي فقطْ إنكـارَ أُخُوَّتِـه وحرمـانَه من إرثِ أبيهِ، بلْ كانَ يعنِي أنَّـه أصبحَ بلا مأوَى ولا أهلٍ في ذلكَ البلـدِ البعيـدِ عن قـريتِـهِ بالجنـوبِ، وبـلا مـالٍ



للإقامةِ في فندقٍ، أو العودةِ منْ حيثُ أتَى! ولمْ يكنْ لهُ طمعٌ في استرجاعِ نصيبِهِ من الإرثِ، بقدرِ ما كانَ يريدُ أن تكونَ لهُ أسرةٌ وأهلٌ . . .

وأنقذَهُ أذانُ العصرِ من صدْمتِهِ، فذهَبَ إلى أقربِ مَسْجدٍ ليصليَ، ويُفكّرَ فيمَا عليهِ أنْ يفعَلَ . . . . ثُمَّ صلَّى المغربَ وراءَ إمامٍ مهيبِ الطلعةِ، ذكَّره بجدِّهِ لأمِّهِ، كما رآهُ في الصورةِ، وكمَا كانتْ تحكِي له عنهُ أمُّهُ. ولم يَفُتِ الإمامَ أنْ يلاحظَ وجودَهُ بينَ المصلِّينَ الدائمينَ، فوجَّه إليه تحيةً خاصّةً. ولاحظَ احمرارَ عينيْهِ، ولكنَّهْ لمْ يقلْ شيئًا. وبعدَ الصلاةِ جلسَ المصلُّونَ في نصفِ حلقةٍ حولَ المحرابِ، لقراءةِ الحزبِ، فجلسَ بينَهُم، وقرأ معهُمْ دونَ تعثُّرٍ ولا تردُّدٍ. وكان الإمامُ يسترِقُ النظرَ إليهِ، وهوَ جالسٌ جنبَ المحرابِ، على لبدتِهِ الخضراءِ.

وحينَ ختمَ القُرّاءُ الحزبَ وانصرفُوا، استبقاهُ الإمامُ، وسألَهُ هلْ هوَ قادمٌ جديدٌ إلى المدينةِ ؟ فوقفتْ غصَّةٌ حاميةٌ في حلقِ الفتَى، ولم يتمالكْ دموعَه، فأخذَ الإمامُ يهدِّئُهُ، ويطيِّبُ خاطرَهُ، حتّى كفَّ عنِ البكاءِ ومسحَ دموعَهُ، وحكَى للفقيهِ قصَّتَهُ الحزينةَ، فقالَ لهُ الرجلُ باسمًا :



- لا تحزنْ، يـا ولـدِي. . . اللّـهُ كـريمٌ، ولن يتخلَّى عنكَ! وسيأخذُ حقَّكَ منَ الظـالمِيْنِ! والآنَ، ستذهبُ معِي إلى دارِي، فعندِي ولدٌ في مثلِ سنِّكَ، وغدًا مدبِّرُهَا حكيمٌ. . .

وعلَى مائدةِ العشاءِ تبيَّنَ الإمامُ محمَّـدٌ الكورفطِيّ، من طريقةِ أكلِ المختارِ وحـركاتـهِ المهذبـةِ أنَّ الفَتَى كان متمـدنًا وذا تـربيةٍ حسنةٍ. ومن حديثِهِ معـهُ أدْرَكَ أنَّهُ لم يكنْ يحفظُ القرآنَ عن ظهرِ قلبٍ فقطْ، بلْ ويستظهـرُ عددًا منَ الأحـاديثِ النبويّـةِ والمتونِ الدينيةِ واللغويةِ والحسابيةِ والفلكيةِ. . !

وفي الصبـاحِ خيّرَهُ الإمامُ بينَ أنْ يشترِيَ لـهُ تـذكرةَ عـودةٍ إلى قريتِهِ، أو يجدَ له عملاً كمدرسٍ للقرآنِ والمتونِ في مكانٍ قريبٍ من المدينةِ، حتّى يحصلَ لَـهُ علَى منحةٍ للدراسةِ بالمعهـدِ الدينيّ بالعرائشِ، فاختارَ الفتَى البقاءَ علَى العـودةِ خائبًا إلى قريتِهِ التِي لم يعدْ لهُ فيهَا قريبٌ.

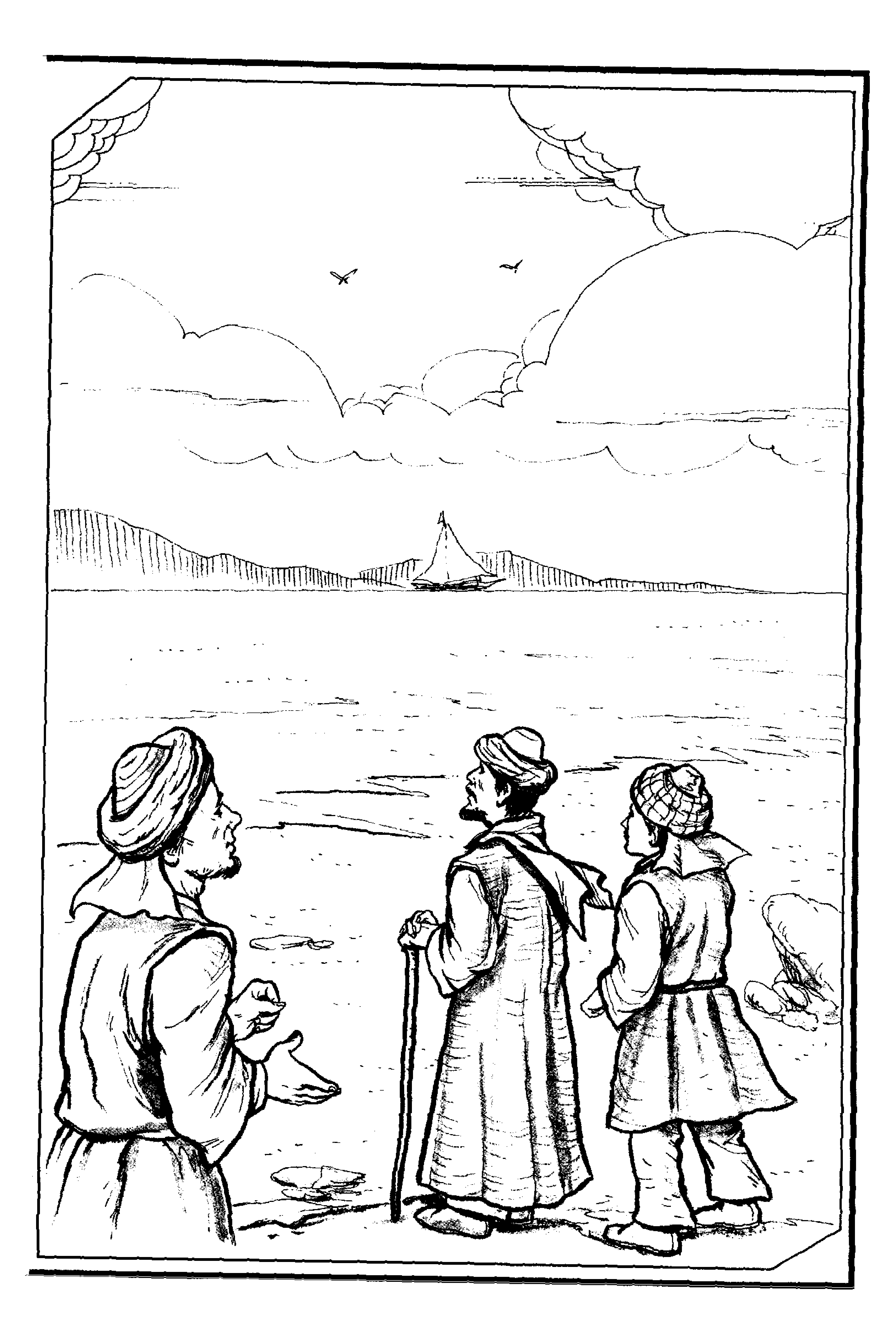
وكـانَ اليـومُ الموالِي يـومَ خميسٍ، فأخـذَهُ الإمـامُ إلَى مـوقفِ السياراتِ، وأوصَـى به أحدَ التجـارِ الذاهبينَ إلى سـوقِ خميسِ السـاحلِ، شمالَ العـرائشِ، علَى الطـريقِ المؤدِّيـةِ إلى أصيلـةَ

وطنجةَ، ليسلمَهُ إلى صـديقٍ لهُ منْ قريةِ «دشرِ الـرواحِ» القريبَةِ من السـوقِ، وأعطاهُ رسـالةً إلى شيـخِ القريـة، السيد عبـد الله غيلانَ.

كانتِ الأحداثُ تجرِي من حولِ المختارِ. أغلول بسرعةٍ أنستْهُ مشكلاتِهِ وهمومَه، وأحسَّ بدفءِ هؤلاءِ الناسِ الطيبينَ وحُبِّهم للخيرِ ورغبتِهِمْ في السعيِ فيـهِ، لاَ طمعًا في دنيَا، ولكـنِ ابتغاءَ مرضاةِ الله.

* * *

وقضَى بيـاضَ نهارِهِ في سـوقِ الخميسِ الأسبـوعيـةِ. وبعـدَ صلاةِ العصرِ تـوجَّهَ صحبـةَ الشيخِ عبد الله غيـلانَ وجماعةٍ من القـرويينَ إلى «دشرِ الرواحِ» علَى ظهـورِ البهائمِ. لم تكنْ هنـاكَ طريقُ سياراتٍ توصلُ إليهِ، كـانتْ طريقُ الراجلينَ تخترقُ غابةَ صفصافٍ وفلين كثيفةً. وحينَ اقتربُوا من القريةِ دخلتِ القافلةُ غابةً من الصخورِ الملساءِ العـاليةِ والقصيرةِ، وتعرَّجَتْ أمامَهُم الطريقُ بينَهَا.



وفجأةً لاحَ لهُم المحيطُ الأطلسيُّ الممتــدُّ الهائلُ، وقـدْ أوشكَ قـرصُ الشمسِ الأرجـوانيُّ الضخمُ أنْ ينـزلَ في الماءِ. وكـانَ الماءُ أحمرَ قانيًـا، تتراقصُ فوقَهُ صحـائفُ من ذهبِ الأصيلِ، تخلبُ الألبـابَ... وخشعتْ نفوسُ القـرويينَ، فارتفعتْ أصـواتُهُم بـالآيةِ القـرآنيـةِ الكريمـةِ: **﴿والأنعـامَ خلقَهَا لكمْ فيهَـا دفءٌ ومنـافعُ ومنهَـا تأكلـونَ * ولكمْ فيهَـا جمالٌ حينَ تُـريحونَ وحينَ تَسرحونَ * وتحملُ أثقـالَكُم إلَى بلـدٍ لمْ تكـونُوا بـالغيـهِ إلا بشقِّ الأنفسِ إنَّ ربَّكُمْ لرؤوفٌ رحيمٌ﴾**.

وانبهـرَ المختارُ للمشـاهدِ الطبيعيّـةِ الرائعـةِ التِي لم يرَهـا منْ قبلُ، ولأصـواتِ هؤلاءِ القرويينَ الطيبينَ الـذينَ يعبِّرُونَ بـذكرِ اللهِ عن حُبِّهم لهُ ولبـديعِ خلقِهِ، وأحسَّ وهوَ يرفعُ صـوتَه معَهُم بالتلاوةِ بالدموعِ تترقرَقُ من عينيْهِ...

ومعَ المغـربِ دخلتِ القافلـةُ الصغيرةُ قـريةَ «دشرِ الـرواحِ» ذاتَ الأكـواخِ البيضاءِ، وتـوجَّهَ بـهِ الشيخُ رأسًا إلى المسجـدِ، حيثُ كانَ الناسُ ينتظرونَهُ لإقامةِ الصلاةِ.

وسارتِ الأمورُ بسرعةٍ بعدَ الصلاةِ، فقدَّمَهُ الشيخُ إلَى مدرِّسِ القرآنِ العجوزِ المريضِ. ورحَّبَ بهِ هذا كمساعدٍ لهُ، وقدَّمَ لهُ تلاميذَهُ، وقادَهُ إلى الغرفةِ الملحقةِ بالجامعِ المخصصةِ لإقامتِهِ، وأخبرَهُ بأنَّهُ سيعيشُ علَى «المعروفِ»، أيْ مَا يقدِّمُه أهلُ تلاميذِ القريةِ مِنْ طعامٍ وكساءٍ ونقودٍ في المناسباتِ.

ووجدَ في المسجدِ خِزانةً بهَا عددٌ من أمهاتِ الكتبِ، فأقبلَ على قراءتِها بنهمٍ، خصوصا مع عدم وجودِ تسليةٍ أخرَى، غير الحديثِ إلَى الناسِ والتجوُّلِ في الغابةِ وعلَى شاطئِ المحيط.

❊ ❊ ❊

وبعدَ بضعةِ أشهُرٍ من حلولِهِ بالقريةِ تُوُفِّيَ المعلِّمُ العجوزُ، وأخذَ هوَ مكانَهُ، كَمَا كانَ متوقَّعًا، ووجدَ المختارُ في التعليمِ لذةً عظيمة..! كانَ يحسُّ كأنَّهُ بستانيٌّ يتعهَّدُ أزهارًا بشريَّةً جميلةً، ويراهَا تتفتَّحُ كلَّ يومٍ أمامَ عينيْهِ.

ومرَّتِ الأيامُ، واشتدَّ حنينُهُ إلى قريتِهِ البعيدةِ بالجنوبِ، ولكنَّهُ كانَ كُلَّمَا فكَّرَ في العودَةِ تذكَّرَ أنَّه لمْ يعدْ لهُ بهَا أحدٌ إلا

أقاربُ أبعدونَ، لا يعـرفُهم ولاَ يعرفونَهُ، فكـانَ يبكِي وحدَهُ في جوفِ الليلِ، حتّى يغلبَهُ النومُ. . !

وذاتَ يومٍ جاءَ من أخبرَ أهلَ القـريةِ أن الفرنسيينَ نَفَوْا ملكَ البلادِ الشرعيّ، محمدًا الخامسَ، إلى مدغشقـر، وولّوا بدلا عنه لُعبةً من لُعبهم تـدعَى محمدَ بن عرفـةَ، وأنَّ الطريقَ بينَ الشمالِ والجنوبِ انقطعتْ، ولمْ يَعُـدِ المختارُ يفكِّرُ في العودةِ إلى قـريتِهِ، بلْ أصبحَ يفكِّرُ في الالتحـاقِ برجالِ المقاومـةِ في الجبالِ. ولكنَّ معلومـاتِهِ عمَّا كـانَ يحدُثُ كانتْ محدودةً جـدًّا، فاكتفَـى بقراءةِ الجرائدِ، والإنصـاتِ إلى الإذاعـاتِ، في انتظـارِ فـرصـةٍ مواتيةٍ. . .

كانَ المغـربُ، في هذهِ الأثناءِ، يمرُّ بمـرحلةِ مخاضٍ عسيرةٍ؛ فقـدْ قامَ المغاربةُ لمقاومةِ الاحتلالِ، وتكونت الخلايَا الفدائيةُ في المدنِ، ثم بـدأتْ تتكـوَّنُ فِـرَقُ جيشِ التحـريـرِ في البـوادِي والجبالِ، خصوصًا جبالَ الريفِ الشرقيَّةَ.

ولمْ تمرَّ سنتانِ وشهران وبضعـة أيام علَى نَفْيِ محمدٍ الخامسِ، حتَّى جـاءَ من أخبرَهم بعـودتِـهِ منصورًا من منفـاهُ. . . فخـرجَ

الناسُ يحتفلـونَ بالـدفوفِ والمزاميرِ، ويرقصـونَ في أزقّةِ القـريةِ ويتعانقونَ. . !

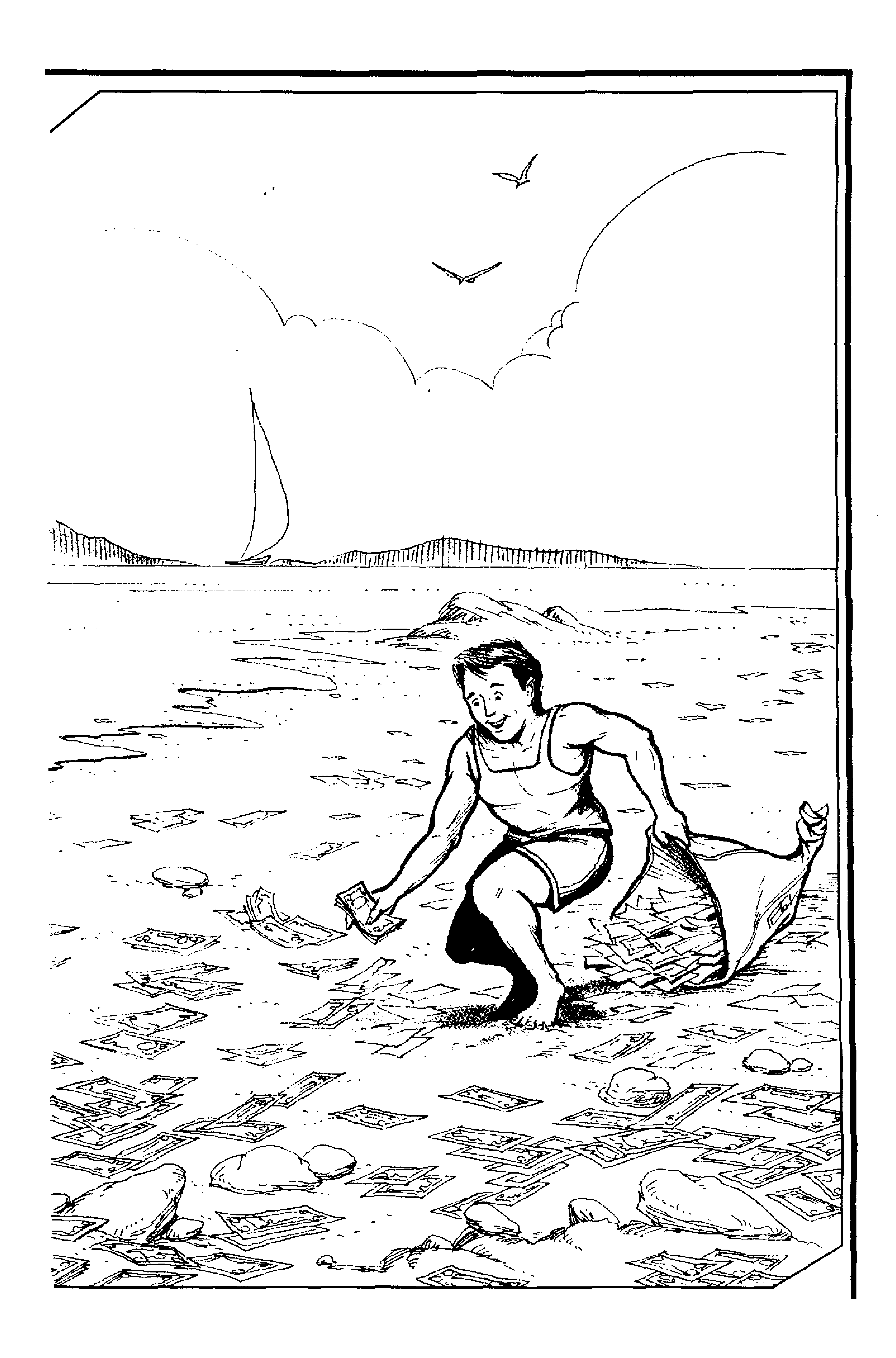
أمّا مـرزوقٌ ومسعودٌ فقدْ أحسَّا بأن التغييرَ الجاريَ في سيـاسةِ البلدِ قـدْ لا يكونُ في صـالِحِهما، خصوصًـا حينَ تخلَّصَ المغربُ من حمايتَيْ فرنسَـا في الجنوبِ وإسبانيَا في الشمالِ، وجـاءَ حكامٌ مغاربـةٌ بدلا عن الأسبانيينَ الذيـنَ كانا يعرفـانِ كيفَ يتفاهمَانِ معهُمْ.

ونـزلتِ المصيبـةُ حينَ أُعلِنَ عن تغييرِ العملـةِ الأسبـانيـةِ «البسيطـةِ» بـالفـرنكِ المغـربيِّ، لتـوحيـدِ العملـةِ، وخـرجَ المنـادونَ في الشـوارعِ يطلبـونَ من النـاسِ أخـذَ نقـودِهم إلى البنـوكِ لتغييرِهـا. ولم يجدِ الـرجــلانِ بُـدًّا منْ أخْـذِ أطنـانِ «البسيطـةِ» الأسبـانيـةِ التِي ادَّخـرُوهَا مـدةَ ثـلاثينَ سنـةً في خـزائِنِهم البـدائيـةِ الخاصـةِ تحتَ الأرضِ، علَى شكلِ رُزَمٍ سميكةٍ مربوطةٍ بالحبالِ!

وفي قـريـةِ دشرِ الـرواحِ نـزلَ المختـارُ بعـدَ صـلاةِ الفجـرِ والإفطارِ إلَى البحرِ للاستحمامِ والهروبِ من حـرِّ القريةِ، وكانَ

البحرُ في جـزرِهِ الأقصَى، والشاطئ خاليًـا تمامًا إلا مِن بعضِ النـوارسِ، ولم يكدْ يقتربُ من الشـاطئِ حتّى لاحظَ شيئًـا غيرَ عـاديٍّ، رأى الـرمالَ مغطـاةً بأوراقٍ صغيرةٍ ملـونـةٍ في حجمٍ واحدٍ، وحينَ اقتربَ منهَا، واستطاعَ تمييـزَهَا، وجَد أنهَا أوراقٌ مـاليـةٌ من فِئةِ ألفٍ بسيطـةٍ، وقـد جففتْهَـا شمسُ الصبـاحِ الناعمـةُ، فدقَّ قلبُـه بعنفٍ، وانحنى، فالتقطَ واحـدةً، فإذا هيَ ورقةٌ ماليةٌ حقيقيّةٌ!

وأصيبَ بنـوعٍ من الهوسِ، فأخـذَ يجمعُ ويجمعُ، ويكـدِّسُ على الأرضِ، ثم نزَعَ جلبَـابَهُ، وربطَهُ من عُنُقِهِ ويـديْهِ، وأخذَ يحشُوهُ حتّى امتـلأ، وحشَا قميصَه وسروالَـه الفضْفاضَ، وحملَ كلَّ ذلكَ إلى مغـارةٍ قـريبـةٍ، وحاولَ أن ينـادي أهلَ القـريـةِ، ولكنَّهُم لم يسمعُـوه من ذلكَ الارتفـاعِ الشـاهقِ، خصـوصًـا وصـوتُ تكسّرِ أمواجِ البحـرِ يُغَطِّي مـا عَدَاهُ من أصـواتٍ! ولم يـزلْ يجمـعُ وينقلُ إلى المغـارةِ حتّى أنهَكَـهُ التعبُ والجوعُ . . . ولكنّـه كانَ قـد أبعدَ جميعَ الأوراقِ عن خطِّ المدّ، ولمْ يبقَ خطـرٌ في أنْ يعودَ البحرُ لأخذِهَا .



ولم يـرفعْ رأسَـه عن الالتقاطِ والتكـديسِ في المغـارةِ إلا حينَ نزلَ الظلامُ، وغطَّى المكانَ. ولحُسْنِ حظِّهِ كانَ اليومُ يومَ سوقٍ، ولم ينـزلْ أحـدٌ من أبنـاءِ القريـةِ إلَى الشـاطئِ، فحملَ جلبـابَـه المحشُوَّ برُزَمِ الأوراقِ الماليةِ، وتسلَّقَ الجُرفَ العالي إلَى القريةِ.

وهنـاكَ وجـدَ شيخَ القـريـةِ قلقًا عليـهِ، ينتظـرُهُ في المسجـدِ وحدَه، ومـا كادَ يفتـحُ فمَهُ بالعتـابِ حتّى أفـرغَ المختارُ أمـامَه الجلبـابَ . . وجحظتْ عينَـا الشيخِ وهـوَ ينظـرُ إلَى كلِّ تلكَ الأوراقِ الماليةِ! لم يسبقْ لهُ أنْ رآهَا بتلكَ الكثـرةِ في حياتِه! ومدَّ يدَه ليتـأكَّدَ أنّها حقيقيةٌ، ثـمَّ نظرَ إلى المختـارِ فزِعًا وقـال: «منْ أينَ لكَ كلُّ هذهِ الأوراقِ الماليةِ، يا بنيّ؟».

وكـانَ في سـؤالِ الشيـخِ اتهامٌ ضمنيٌّ بتصرفٍ غير سليمٍ. فطمأنَه المختـارُ إلى أنَّه وجدَهـا علَى الشاطئِ، وأنّها ليستْ مِلكَ أحدٍ، وأنَّ هناكَ منها ما يملأُ غرفةً كبيرةً. . .

ودخلَ المختارُ غرفتَه، وعـادَ بكسرةِ خبزٍ كبيرةٍ، أخذَ يقضِمُ منهَا ويأكلُ بشراهةٍ، وقالَ للشيخِ: «لمْ آكلْ طولَ النهارِ! نزلتُ

مع الفجرِ للاستحمامِ، فوجدتُ الشاطئَ مغطًّى بهَا. . . والحمدُ لله أنّ ريحًا لم تهبَّ، وإلا كانت حملتْها إلي مكانٍ آخرَ».

فسألَ الشيخُ: «وماذَا تنوِي أن تفعلَ بهَا، يا ولدِي؟».

فقالَ المختارُ: «لقد فكَّرتُ طولَ النهارِ وأنَا أجمَعُها، ثمَّ وأنا صاعدٌ إلى هنَا فيمَا يجبُ عملُه، فاستقرَّ رأيِي على أن ننزِلَ هذه الليلة إلى الشاطئِ بالبغالِ والأكياس، وننقلَها إلى هنا، وندفِنَهَا في مطمورةٍ، ونرهِفَ أسماعَنا، وننتظرَ. . فإذا لم يظهرْ لها صاحبٌ، تصرَّفْنَا فيهَا حسبَ الكتابِ والسنةِ. فما رأيُك؟».

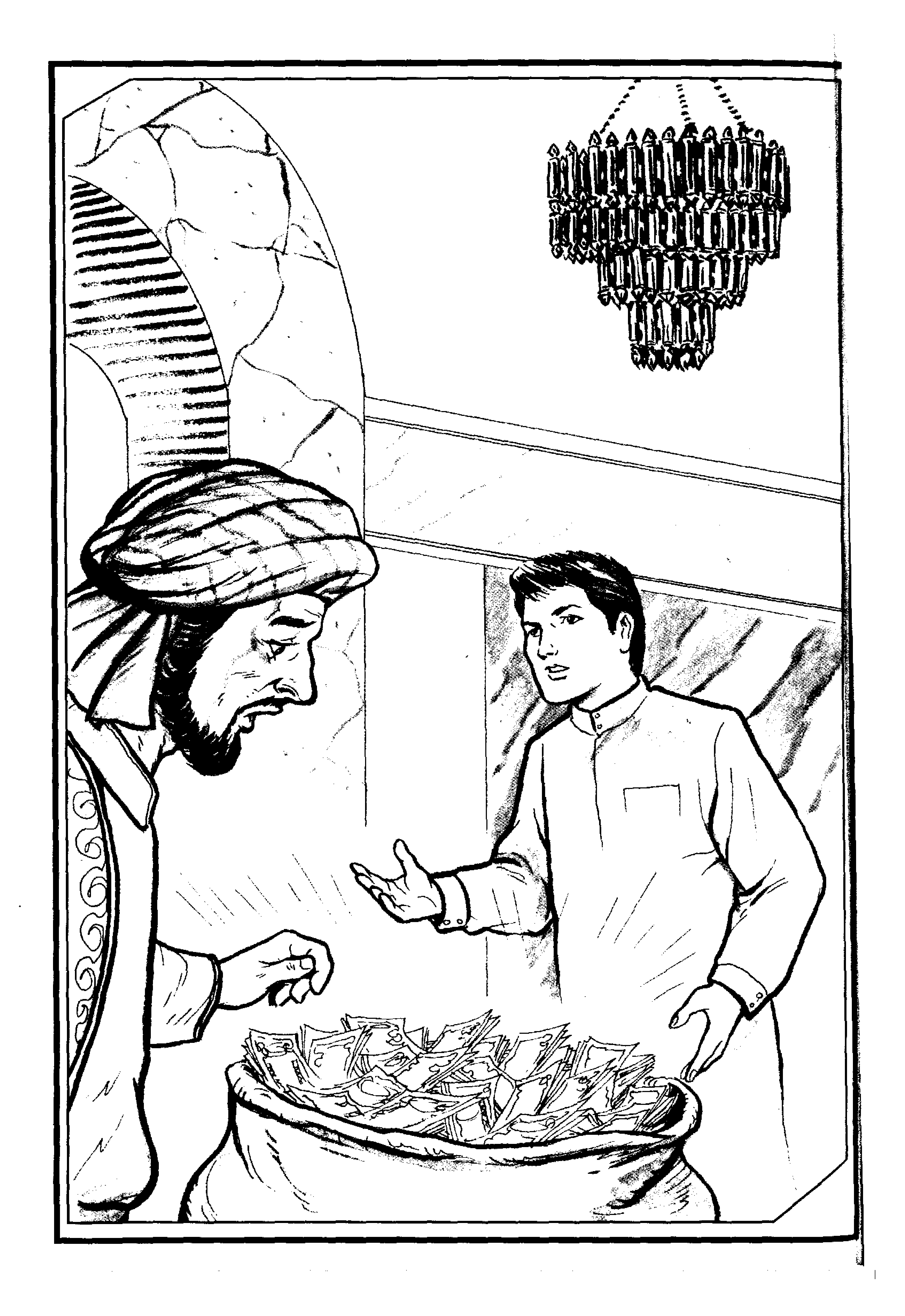
- هذَا رأيٌ حسنٌ، يا ولدِي، ولكنَّ هناكَ مشكلةً.

وانقبضَ صدرُ المختارِ:

- وما هيَ المشكلةُ؟

- إنَّ هذهِ النقودَ عمرُها محدودٌ؛ فقد بلغنِي أنَّ الحكومةَ طلبتْ منَ الناسِ استبدالَ العملةِ العربيةِ بالنقودِ الأسبانيةِ، وحددتْ لذلكَ أسبوعينِ، وقدْ مرَّ منهُما يومانِ.

- وماذَا سنفعلُ؟



فنهضَ الشيخُ وقالَ :

- الآنَ نبدأُ بنقلِ الأوراقِ من الشـاطئِ إلى هنَا ، وغـدًا ينعقدُ سوقُ الخميسِ ، وننزلُ إليهِ لنتنسَّمَ الأخبارَ.

وبعدَ صـلاةِ العشاءِ نـزلاَ المنحدرَ وهمَا يقـودانِ سبعةَ بغـالٍ مربـوطةٍ بعضُهـا إلى بعضٍ . فملآ الأكيـاسَ ، وحزمَـاها على ظهورِ البغـالِ حَزْمًا محكمًا . ومع منتصـفِ الليلِ كانَا قـدْ عادَا إلى القـريةِ ، ودفنَـا الأكياسَ في عـدةِ مطاميـرَ. وبعدَ صـلاةِ الفجـرِ نـــزلَ المختـارُ إلى الشـاطئِ ، والتقــطَ مــا تبقَّى من الأوراقِ ، حتّى لا يبقَى لهَا أثرٌ بالمكـانِ ، وعادَ لينزلَ مع الشيخِ إلى السوقِ .

وفي سوقِ خميسِ الساحلِ ، ربطَا بهيمتَيْهِما ، ودخلاَ يتجوَّلانِ بينَ الناسِ ، وكـانَ أولَ من التقيَاهُ الفقيهُ الطيبُ الكـرفطيُّ ، إمامُ جـامعِ العـرائشِ الـــذي أرسلَ المختـارَ إلى الشيخِ ، لقيهما بـاسمًا مستبشرًا ، وكأنَّـهُ كـانَ يبحثُ عنهُمَا . وبعـدَ أنْ سلَّمَ علَى الشيخِ توجَّهَ إلى المختارِ قائلاً : «جئتُ خصيصًا من أجلِكَ ! » .



فخافَ المختـارُ أنْ يكونَ بلغَه خبرُ الكنـزِ الذي عثـرَ عليهِ، ولكنَّ الرجلَ قالَ:

- أريدُ أنْ أكونَ أولَ من يبشِّرُكَ بخبرٍ سيسرُّكَ كثيرًا. . . وهو يتعلَّقُ بأخـويْكَ العاقَّيْنِ، مـرزوقٍ ومسعودٍ. أتـذكرُ يـومَ أنكرَا أُخُوَّتَكَ، وطردَاكَ ليَحْرِماكَ من نصيبِكَ فِي إرثِ أبيكَ؟

وكانَ المختارُ يتحرَّقُ لمعرفةِ الخبرِ، فقالَ:

- نعمْ، أذكرُ. . .

فأضافَ الإمامُ:

- وكنتُ قلتُ لكَ: إنَّ الله سينتقمُ لكَ منهُما؟

فقالَ المختارُ:

- نعمْ! نعمْ!

فقالَ الفقيهُ:

- لقـد صـدقَ وعـدَه، وأنــزلَ عليهمَا كـارثـةً لم تكنْ لهمَا فِي الحسبانِ!

وزيـادةً في التشـويقِ قطعَ الفقيـهُ حديثَـهُ، ودعـاهما لشربِ الشاي معَـهُ في مقهى السـوقِ، وجلسَ الثلاثـةُ حولَ طـاولةٍ، تحتَ شجـرةِ تينٍ عظيمةٍ كثيفـةِ الظلِّ، وطلبَ الفقيهُ الشـايَ، وعادَ إلى حكايتِهِ بالحماس نفسه:

- إنَّ ما حـدثَ لِلصَّينِ لدليلٌ قاطعٌ علَى وجـودِ الله وعلَى أنَّهُ يُمهلُ ولا يهملُ. . . لقـد أفقَـرهُمَا في أقلَّ من دقيقـةٍ! كلُّ المالِ الذي جمعاهُ في ثـلاثينَ سنةً ذهبَ فِي رمشةِ عينٍ! لأنَّـه كانَ مبنيًّا على مالٍ مسروقٍ، مالٍ حرامٍ!

وحكَى لهمَا كيفَ أن الأخويْنِ الشرّيريْنِ فوجئا بأمرِ الحكومةِ بتغييرِ العملـةِ، وكيفَ أنَّهمَا جـاءَا ذاتَ صبـاحٍ بشاحنـةٍ ونقـلاَ كنـزَهُما إلى البنكِ المركـزيِّ للمدينـة، وأدخلَ الحمالـونَ الـرزمَ في صنـاديقَ إلى قـاعـةِ البنكِ، فأقفلَ المديـرُ البـابَ حتّى ينهيَ العمليـةَ الضخمةَ التي لمْ تخطـر على بـالِـهِ! وسلَّمَ المديرُ الـرزمَ لموظفِي الشبابيكِ لعدِّها.

وقـالَ الإمامُ: «ومـا كـادُوا يفتحونَ حبـالَهَا حتّى تبيَّنَ لهُم أنَّ الأوراقَ قـدْ لصِقَ بعضُها ببعـضٍ، وأنّها أصبحتْ قطعًا صلبـةً

كآجُرِ البناءِ ! وأخبرَ الموظفونَ المدير، فذهبَ بنفسه ليتأكَّدَ. فأمسَكَ بـرزمـةٍ وأخـرَى، وحـاولَ فـكَّ أوراقِها، دونَ جدوَى . . . فتوجَّهَ إلى الرجلينِ، وسألَهُما بعنفٍ : «أينَ كانتْ هذهِ الفلوسُ ؟!» .

فقال مرزوق : «عندنا في خزانتنا. لماذا ؟» .

فقالَ المديرُ: « ولماذا لم تودِعَاها أحدَ البنوكِ؟!» .

ونظرَ كلٌّ منهُمَا إلى أخيهِ، ولم يجيبَا. فقالَ المديرُ، وكأنَّهُ يلقِي في وجهيْهِما بقنبلةٍ :

– هذِهِ الأوراقُ فاسدةٌ ! لم تعدْ صالحةً للاستعمالِ، ولا يمكنُنَا أنْ نأخذَهَا منكُم!

ووقفَ الرجلانِ يرمشانِ أمامَ المديرِ، غيرَ فاهميْنِ حقيقةَ مَا يقصدُه، فقالَ مسعودٌ :

– وماذَا سنفعلُ ؟

– ذلكما شغلُكُمَا، ولكنّي أنصحُكُمَا بالتخلُّصِ من هـذَا الآجُرِ الصُّلبِ؛ فالاحتفاظُ بالعملةِ الفاسدةِ مخالفٌ للقانونِ .

واصفـرَّ وجـهُ مـرزوقٍ، وأحـسَّ بفـراغٍ في ركبتيْـهِ، وسقطَ مغشيًّا عليـهِ ! وجلسَ أخوهُ مسعودٌ إلى جـانبِهِ، وقـد أحسَّ هوَ الآخـرُ بالضعفِ والـوهنِ. . . وخـافَ مديـرُ البنكِ أن يموتَـا هناكَ، فطلبَ الشرطةَ.

وجاءَ رجـالُ الأمنِ، فحملـوهُمَا وقناطيرَ نقـودِهِمَا المتحجرةِ إلى منزليْهِمَا. وهنـاكَ تماثلاَ مـن الصدمـةِ، وانصرفَا إلى الأوراقِ الماليةِ، يحاولانِ فكَّها بجميعِ الوسائلِ؛ أغرقاهَا في الماءِ، ثم في الزيت، وطبخـاهَا، وضرباهـا بالهراواتِ، وبخّرَاها في مبـاخرِ الكسكسِ، دونَ جدوَى !

وفي الصبـاحِ حضرَ رجـالُ الشرطـةِ لِيُنبِّهُـوهُمَا إلَى وجـوبِ التخلُّصِ من العملةِ الفاسدةِ. فـاضطُرَّا إلى تأجيرِ من نقلَها إلى الميناءِ، ومنه إلى مَـركبٍ كبيرٍ أبحرَ بها داخلَ المحيطِ، وألقَى بهَا في لُجَّتِهِ، وهمَا ينظـرانِ، وينتحبانِ على ضياعِ شقاءِ العمـرِ كلِّه وسنواتِ التقتيرِ والحرمانِ!

وفي طـريقِ العودةِ التفتَ مـرزوقٌ إلى أخيـهِ مسعودٍ، وكأنَّـهُ تذكَّـرَ شيئًا، وقال لهُ: «لا بـدَّ أنَّ هذَا من عملِ ذلكَ الخبيثِ، أخينَا المزعومِ المختارِ ابنِ الضَّـرَّةِ !».

فقالَ مسعودٌ: «أنـا أعتقدُ أنَّهُ من عملِ الفقيهِ الطـاهرِ الذِي أرسلَهُ إلينَا برسالتِـهِ التي مزقْتَها أنتَ ورميتَها ! وكانتْ بهَا بعضُ الآياتِ القرآنيةِ. أتذكرُ ؟».

ولم يفتآ يتلاومانِ حتّى افترقَا عند بابِ شقتيْهِمَا. . .

وجاءَ دورُ المختـارِ، ليفاجئَ الإمـامَ الطيبَ الكورفطيَّ بخبرِهِ الخطيرِ، ونظـرَ إلَى شيخِ القـريةِ مستأذنًـا، فأذِنَ لـهُ في الكشفِ عن سرِّ الكنزِ الكبيرِ. وفـوجئَ الإمامُ فعلاً بالخبرِ، وأخـذَ يردِّدُ، وهوَ ينظرُ إلى السماءِ:

- سبحانَ الله ! سبحانَكَ، يا جليـلُ ! ما أعدلَكَ، يا ربّ! تُمهِلُ ولا تُهمِلُ!

فتساءل المختار:

- وما الذي ينبغي عملُه بهذا المالِ في نظرِ الشرعِ ؟

فلم يتردَّدِ الشيخ في الجوابِ:

- هذا مـالك! سرقَهُ أخواكَ منك ومن المرحـومة أمك، وردَّهُ الله إليك !

كـانَ يتكلَّمُ بحماسٍ، وقــد احمرَّ وجهُـهُ المستـديــرُ، وكأنَّـهُ اكتشفَ كنزًا أعظمَ منْ كنزِ المختارِ:

- ألمْ ترَ قدرةَ الله تتصرَّفُ لتعيدَ المالَ إلى من يستحقُّهُ؟! ألمْ ترَ كيفَ جعلَ الأوراقَ الماليَّـةَ تلتصِـقُ، وتصبحُ قطعًـا صلبـةً، لمْ ينفعْ في فصلهَـا مــاءٌ ولا زيـتٌ ولا طهيٌ ولا ضربٌ ؟! وكيفَ جعلَ الأخـوينِ يلقيانِ بهَا في البحـرِ، ولا يحرقانِها ؟ وذلكَ كـانَ أسهلَ؛ فالأفرانُ والحمامـاتُ كثيرةٌ ! ولكنَّهُما ألقيَا بهَا في البحرِ، لأنَّ بماءِ البحـرِ مـادةً تـذيـبُ اللصـاقَ، وتفصلُ الأوراقَ ! ثمَّ كيفَ أخرجَ تلكَ الأوراقَ إلى ذلكَ الشـاطئِ، وفي ذلكَ الصباحِ بـالـذاتِ؟ ! وجعلَكَ أنـتَ، دون غيرِكَ، تنـزلُ لـلاستحمامِ في ذلكَ الـوقتِ خـاصـةً؟! . . . مصـادفـاتٌ ! أنـا لا أقـولُ إنها مصادفاتٌ، إنَّها تـرتيبٌ منهُ، سبحانه وتعـالى، لا إلهَ إلا هوَ ! فحذارِ أن تفكِّرُوا في إرجاعِ المالِ إليهِمَا !» .

فَحَرَّكَ الفقيـهُ رأسَهُ غيرَ مـوافق، وقـال: لا يا ولَـدِي. هذا المال ليس لك وحـدك، بل إن لأخويكَ نَصِيبًـا فيه. وأقترح أن نذهب إلى القَاضِي لنعْرِفَ قولَ الشرْعَ فِيه.

ثم ابتسم وكأنَّه تذكَّر شيئًا مهمًّا، وقال:

- علَى كلِّ حالٍ، حتّى لو أردتَ إعادتَه إليهما فلن تستطيعَ!

فاستفسرَ الاثنانِ:

- لماذَا؟

- لأنَّ أحدَهُمَا، وهو مرزوقٌ، سقطَ ميتًا بمجردِ عودتِهما من البحرِ، بعدَ إلقاءِ شحنةِ الأوراقِ الفاسدةِ! أمَّا مسعودٌ، فقد أصيبَ بشللٍ نصفيٍّ، من جرّاءِ ارتفاعِ ضغط الدمِ... وهو الآن في غرفةِ الإنعاشِ بالمستشفَى العموميِّ، لا يجدُ من يرحمُهُ غيرَ زوجتِهِ المسكينةِ التي لا تفقهُ شيئًا. جميعُ مستخدِمي المستشفَى يتفادونَهُ، لمعرفتِهم بشُحِّه وتقتيرِهِ على نفسِهِ وأهلِهِ، وبُغضِهِ لعملِ الخيرِ!

وعزَّ علَى المختارِ أن ينتهيَ أخُوهُ إلى هذا المصيرِ، رغمَ كلِّ ما فعلَهُ بِهِ... وحاوَلَ البحثَ في ذاكرتِهِ عن التفاتةٍ وُدِّيّةٍ قامَ بها أحدُ الأخوينِ نحوَه، كمداعبَتِهِ أو حمله، أو إخراجِهِ للفسحةِ أو شراء حلوَى أو لعبةٍ لَه، فلم يجدْ! لم يتذكَّر إلا وجهيْنِ عابسينِ في وجهِهِ، وعينينِ حاقدتين تنظرانِ إليهِ، وصوتينِ ينبحانِهِ كلما اقتربَ منهُمَا! وأيقظَهُ الشيخ من شرودِهِ بسؤالِهِ:

- ماذَا تنوِي أن تفعلَ بنصيبك من المال ؟

- لا أدرِي . حوائجِـي كلُّهَا مقضيّـةٌ ، والحمدُ الله ، في عملي بدشرِ الرواحِ .

فقالَ الإمامُ مداعبًا :

- لا تشغلْ بالَكَ بشيءٍ ، يا بنـيّ ؛ المالُ يفتحُ أبوابَ صرفِهِ ! ولا بـدَّ أنَّ الله الـذِي أعادَهُ إليكَ ، سيلهمُكَ أحسنَ الـوسـائلِ لإنفاقِهِ .

ووضع يده على يد المختار، وقالَ :

- أمَّا الآنَ فعلينَـا التفكيرُ في تحويلِ الأوراقِ الماليّـةِ إلى عملةٍ مغربيةٍ .

ونظرَ حواليْهِ ، وانحنَى ليهمِسَ لهمَا :

- لن نُبَـدِّلَ في العـرائِشِ إلا مبلغًـا معقـولاً، حتّى لا نثيرَ الشكوكَ . والبـاقِي سنحوِّلُهُ في بنـوكِ مدنٍ أخـرَى ، مثلِ أصيلةَ والقصرِ الكبيرِ وطنجةَ وتطوانَ والناظورِ.

وتأثّرَ المختـارُ بدفـءِ المحبّـةِ والرعـايةِ الأبـويةِ التي يكنُّهـا له الرجلانِ، فدمَعَتْ عيناهُ، وقالَ:

- لا أدرِي كيفَ أشكُـركُما! أنَـا لا أهلَ لِي، فأنتما منَ الآنِ أهلِي، وهـذه الفلـوسُ هيَ لكُمَا، كمَا هـيَ لِي، وسأفعلُ كلَّ مـا تنصحانِنِي بهِ...

فقالَ الشيخُ مقترِحًا:

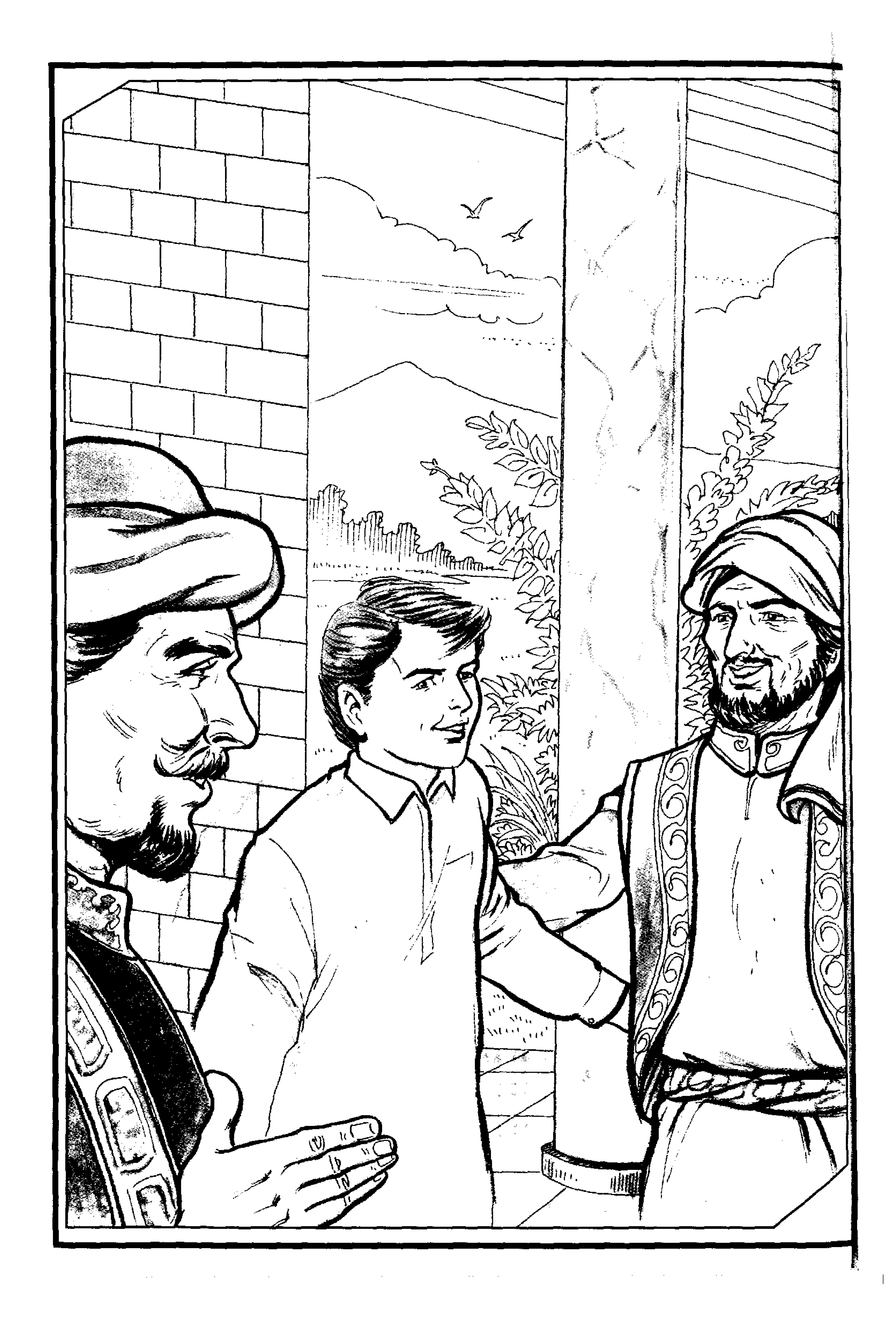
- كنتَ دائمًا تحلـمُ بإتمامِ دراستكَ بـالقـرويينَ، وهـذِه فـرصتُكَ! وستتيحُ لكَ مـدةُ الـدراسـةِ وقتًا كـافيًـا للتفكيرِ فيمَا تفعلُهُ بالمالِ.

فقالَ المختارُ:

- هذَا اقتراحٌ حسنٌ، إلا أنَّنِي أودُّ أن أقـومَ بعملٍ، وأريدُ أنْ توافقانِي عليهِ...

وأنصتَا إليهِ باهتمامٍ، فقالَ:

- أريـدُ أن أنقلَ أخي مسعـودًا إلى عيـادةٍ خاصـةٍ، إكـرامًـا لذكرَى والدِي، رحِمَهُ الله، وللرحمِ التي بيننَا.

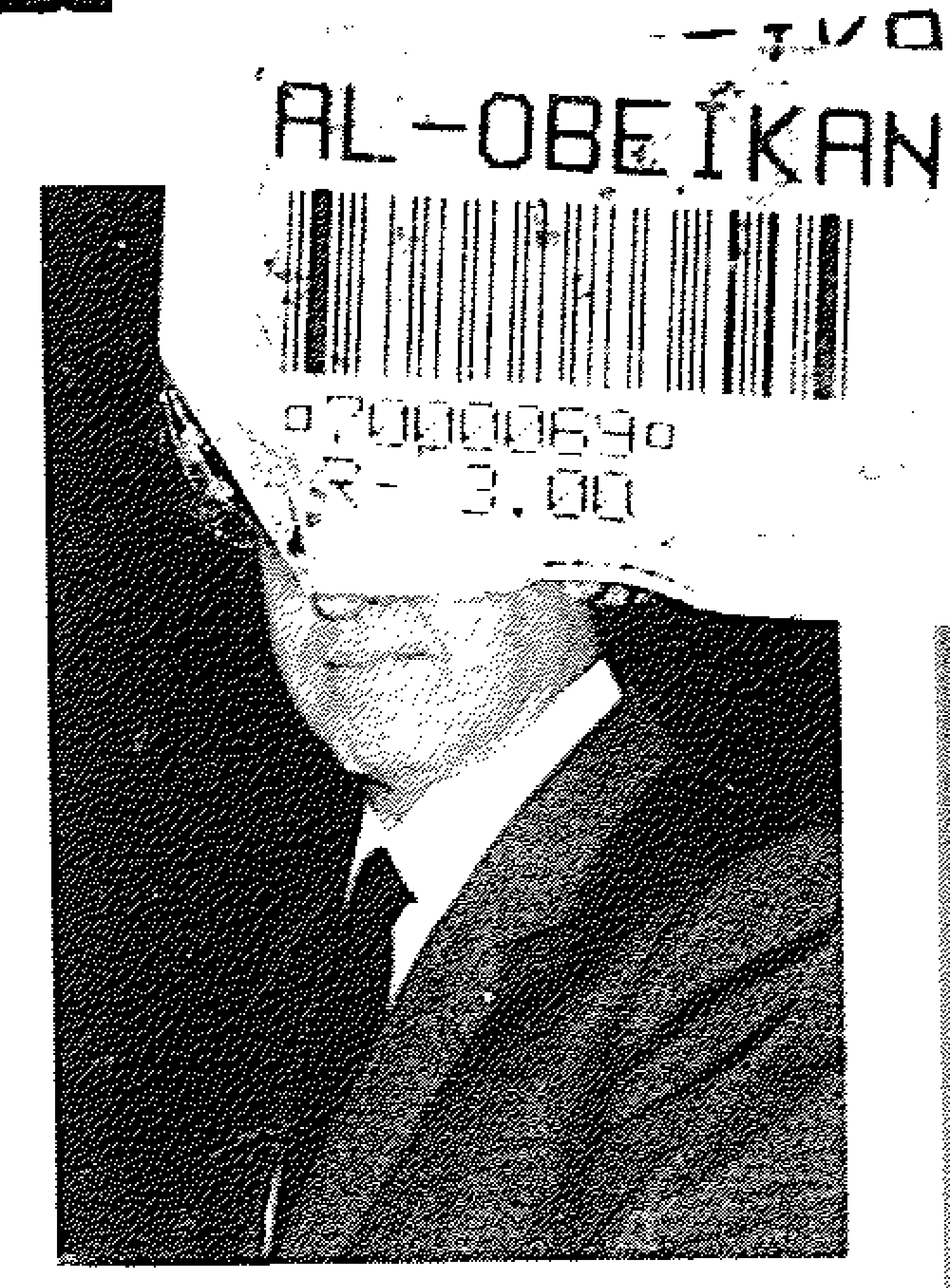


وتأثَّـرَ الرجلانِ لمعينِ الـرحمةِ الفيّاضِ في قلبِ الفتَـى، وقالَ الفقيهُ:

- هذه التفاتةٌ لا تصـدرُ إلا عنْ قلبٍ كبيرٍ، يا ولدِي! هنيئًا لكَ!

وعجزَ لسانُ الشيخِ عن التعبيرِ عـنْ مشاعرِهِ، فأمسكَ رأسَ المختارِ وقبَّلَهُ...

هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبدالسلام البقالي، الحاصل علي جائزة «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم».

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس، وخياله الخصب، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر، يقرب للقارئ أحداث الماضي البعيد، ويلقي الأضواء علـ عـ الـ المستقبل، بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاض فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية الـ الحديثة للشباب في العالم العربي.

مكتبتي